نصير شورى: الولائم البصريّة المدهشة

تشرين
27/06/2015

محمود شاهين

طيلة نصف قرن من الزمن ويزيد، قام الفنان التشكيلي السوري الرائد (نصير شورى) برشق ألوانه الوسيمة،

فوق بياض اللوحة البكر، محولاً إياه إلى ولائم بصريّة ساحرة، احتضنت رقته، ومن بين حناياها أطلت إنسانيته الرفيعة والنبيلة، وفي سحبة خطوطها، نفرت روحه الطفلة، وفي كل تمتمة بقعة لون، ارتسمت شخصيته الوديعة، المحبة، الهادئة، الحساسة حتى التطير والمرض!!.

فهذا الفنان كان واحداً من رواد الفن التشكيلي السوري وأحد فوارس اللون والخط والتعب السعيد الذي يدعى (الفن). حمل في شخصيته روح الفنان الحقيقي القادم إلى مفازات الجمال بموهبة أصيلة، تبلورت ونضجت وجمّعت المعارف، عبر الممارسة والدراسة الأكاديميّة التي بدأها في كلية الفنون الجميلة في القاهرة (تخرج فيها العام 1947) وأنهاها في أكاديمية الفنون الجميلة في روما (تخرج فيها عام 1951) وكان أول من يحصل على درجة الأستاذيّة (بروفيسور) بين أعضاء الهيئة التدريسيّة في كلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق التي عمل فيها مدرساً لمادة الرسم والتصوير، وشغل منصب وكيلها العلمي عدة سنوات، وكان ملازماً لزميله ورفيق دربه في الفن والعمل الوظيفي الفنان الرائد محمود حمّاد الذي غادر الحياة قبله بأربع سنوات (1988). عُرف عن الفنان الرائد نصير شورى وداعته، وطيبته، وحساسيته المفرطة، ومحبته، وحرصه الشديد على ألا يسيء حتى لنملة تدب على الأرض، فقد تماهت فيه شخصية الإنسان بالفنان. اختلطت قيمهما النبيلة، فكنا أمام صورة مثلى لفنان يعيش إنسانيته بأبعد صفاتها الخيّرة، الطيبة، وأمام إنسان ينسكب بعفوية الطفل ونقائه، فوق سطح اللوحة، كلما لامست ريشته الشاعريّة بياضها.

لقد كان نصير شورى مثالاً نادراً للفنان الإنسان، والعكس صحيح أيضاً، لذلك شكّل إشارة بارزة وفريدة في الوسط الفني التشكيلي السوري المعاصر. هو نسيج وحده. نسيج لحمته النقاء النبيل، وسداته الاجتهاد المنقطع النظير، في الإنتاج والعرض وتعليم المواهب الفنيّة الشابة.

بدأ الفنان نصير شورى مسيرته الفنيّة كما يبدأ معظم الرسامين، انطباعياً مسحوراً ببقع اللون الوسيمة، يزغرد بين جنباتها الضوء، ويستحم في ثناياها الجمال. وقد استمرت هذه المرحلة عنده مدة طويلة من الزمن، كان خلالها معلماً بارزاً في استنباط الألوان الانطباعيّة الشفيفة المسكونة بغنائيّة رومانسيّة قادرة على مغازلة بصر وأحاسيس المتلقي، عالج فيها، موضوعات لصيقة بالبيئة المحيطة به: العمارة القديمة، القرى، المناظر الطبيعيّة، الورود والأزاهير، الأمومة، الوجوه وموضوعات إنسانيّة مختلفة.

بعد المرحلة الواقعيّة الانطباعيّة، وبتأثير جملة من العوامل، منها سفره واحتكاكه باتجاهات الفنون التشكيليّة الجديدة، وتعمقه بشكل أكبر بمعطيات التراث العربي، إضافة إلى معايشته اليوميّة لتجربة زميله ورفيق عمره محمود حمّاد الذي كان قد سبقه إلى رحاب التجريد الحروفي. بعد هذه المرحلة، غادر الفنان نصير شورى منصاته الرومانسيّة الوسيمة، إلى نوع من التلخيص الحذر للشكل المشخص، والاختزال المدروس للون، أعقبته مرحلة ثانية وقفت فيها لوحته في برزخ خاص يقع بين التشخيص والتجريد، من دون أن يتخلى عن اللون المسكون بالشعر والشفافيّة، وهو عشقه الذي ظل يتملكه حتى سقوط الريشة من يده!!.

هذا التوزع المُؤرق للفنان نصير شورى، بين عفويّة الانطباعيّة، وعقلانيّة التجارب المخبريّة المجردة وشبه الزخرفيّة، دفعه لمحاولة التوفيق: بين العشق القديم للتعبير الحر، وبين التجارب المُقادة من قبل المختبر في داخله. هذه المحاولة أفرزت حالة من الاغتراب الشكلاني المجرد المتماهية بأطياف انطباعيّة، غابت عنها التفصيلات الصغيرة لمصلحة المساحات اللونيّة الواسعة والمؤطرة والمشغولة بوساطة أدوات ووسائط تلوين جديدة.

لقد تحولت اللوحة لديه خلال مرحلة البحث والتجريب هذه، إلى خلطة عجيبة تهادنت فيها مرحلتان: الأولى تجربته الفنيّة القائمة على ولع شديد باللون الشاعري

المُطرب للعين والإحساس، والمعجون برومانسيّة لصيقة بشخصيته الحقيقية ومكوناتها، والثانية تجربته المتسمة برصانة حساباتها الشكليّة واللونيّة، واختزالاتها المدروسة شكلاً وتموضعاً، والواقفة بتردد، في البرزخ الفاصل بين (التشخيص) والدلالة الواقعيّة، وبين التلخيص والاختصار الشكلي واللوني، يضاف إلى ذلك، ابتكاره لطريقة خاصة في مد اللون فوق مساحات الأشكال، تقوم على تحديد هذه المساحات، وعزلها عما يجاورها، ثم تلوينها بوساطة إسفنجة، للحصول على تأثيرات تكنيكيّة متباينة، غلبت عليها تقنية التنقيط الناعم والخشن، والتهشير المدروس، لخلق إيقاع شكلي ولوني خاص ومتفرد.

تفردت لوحة الفنان شورى خلال هذه المرحلة بجملة من الخصائص والمقومات أبرزها: التكوين المدروس والمتين لعمارتها وحركته، حيث يقوم كل عنصر فيه بإسناد العنصر الآخر وتأكيده كهيئة وكدرجة لونيّة. بمعنى أن اللون لديه، استقر ضمن الشكل المناسب، ثم تنامى الشكل واللون معاً، ضمن سيطرة تامة وكاملة، على سطح اللوحة الذي ظل (رغم غواية التجريب التقاني) مفعماً بحساسيّة خاصة، ومعجوناً برومانسيّة واضحة، ومنحازاً إلى عشق قديم- جديد، مطمور في الأعماق، كان ينمو ويكبر ويشتد عوده يوماً بعد يوم، ضاغطاً على روحه وكيانه. هذا العشق تملك الفنان شورى أثناء ترحاله، مطالع حياته، في بساتين دمشق وحقولها وقراها، ورصده لعرائش وأشجار بيوتها القديمة الجميلة الحاضنة لدفء شمسها، ونقاء ضوئها، وهو ما يفسر عدم غياب مفردات الطبيعة عن لوحته، حتى في مرحلته التجريديّة.

هذا العشق المدنف للطبيعة والانطباعيّة واللون المعجون بالضوء والرومانسيّة، سرعان ما ظهر وبان وتأكد، في أعماله التي كان قد أنجزها أثناء رحلة له إلى إحدى مقاطعات الولايات المتحدة الأمريكيّة، وأخرى إلى بلغاريا، رصد فيها بكثير من الموهبة المدعومة بالخبرة، والموهبة، جماليات الطبيعة الخريفيّة الرومانسية، بشتى مظاهرها ورموزها وألوانها، واضعاً فيها أقصى ما يمكن من التأثر والوجد، بحيث يمكن القول، إن هذه الجماليات الطبيعيّة الشاعريّة التي واجهها، كشحت الرماد بقوة، عن جمر عشقه المطمور والكامن داخله، فتوهج واشتعل وأعاده بقوة، إلى طفولته ويفاعته التي عاشها في بساتين وحقول دمشق. وبخبراته المتراكمة بفعل الدراسة والاطلاع والإنتاج، استعاد وجده القديم- الجديد، في لوحة مائيّة جديدة، مفعمة بحساسيّة عالية، وتفاعل كبير، وصدق نادر، وتأثر بالغ، بموضوع الطبيعة، ما جعل لوحته الجديدة هذه، تشكل منعطفاً مهماً ومفصلياً في تجربته الفنيّة الطويلة، منعطفاً أعادها إلى المنصات التي انطلقت منها، إنما برؤية متجددة، طالت الشكل والمضمون في آنٍ معاً.

جميع الحقوق محفوظة © 2017